



كلية الآداب والعلوم
College of Arts and Sciences
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر



أنساك

ANSAQ

مجلة دولية علمية محكمة - يصدرها قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم - جامعة قطر

International Scientific Journal issued by The Department of Arabic Language, College of Arts and Sciences - Qatar University



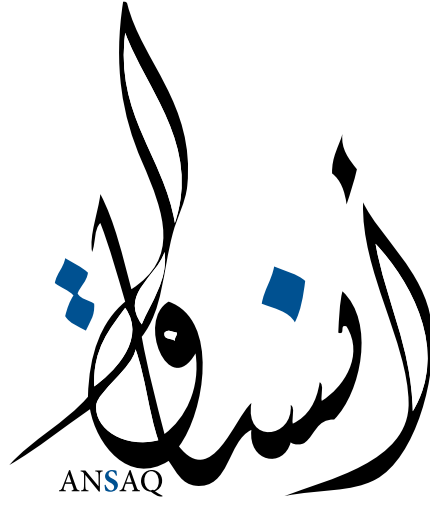
ON LINE-ISSN: 2520-7148

PRINT-ISSN: 2520-713X

أكتوبر
2017

العدد
2

المجلد
1



مجلة علمية دولية محكمة
تصدر عن قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم بجامعة قطر

المجلد الأول
العدد الثاني - أكتوبر 2017م

المجلد الأول، العدد الأول

مايو 2017م

لوحدة غلاف العدد «حكاية قرية» للفنانة القطرية سعاد السالم

شعار اسم أنساق بخط: إبراهيم أبو طوق

للمراسلات

قطر – الدوحة، ص ب 2713 جامعة قطر، كلية الآداب والعلوم – قسم اللغة العربية – مجلة أنساق

المراسلات باسم رئيس التحرير

البريد الإلكتروني للمجلة : ansaq@qu.edu.qa

الموقع الإلكتروني للمجلة : www.qu.edu.qa/ansaq

الترقيم الدولي الإلكتروني : Online-ISSN:2520-7148

الرقم الدولي : Print-ISSN:2520-713X

هاتف رقم : + 974-4403-6441 + 974-4403-4823

فاكس رقم : + 974-4403-4501

رقم الإيداع : 445/2016



مجلة علمية دولية محكمة

تصدر عن قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم بجامعة قطر

* المدير العام *

الدكتورة مريم النعيمي
رئيس قسم اللغة العربية

* مدير التحرير *

د. أحمد حاجي صفر

* الإشراف العام *

الدكتور راشد أحمد الكواري
عميد كلية الآداب والعلوم

* رئيس التحرير *

أ.د. عبد القادر فيدوح

* هيئة التحرير *

امتنان الصمادي
رامي أبو شهاب
رضوان المنيسي
عبد الله الهيتاري
عماد عبد اللطيف
عمرو محمد فرج مدكور
محروس بريك
محمد مصطفى سليم
هيا محمد الدرهم
علي فتح الله
لولوة حسن العبد الله

* الهيئة العلمية *

حافظ إسماعيلي علوي
حبيب بوهروور
رشيد بوزيان
عبد السلام حامد
مبارك حنون
محمود الجاسم
مراد مبروك

* الهيئة الاستشارية *

حمد بن عبد العزيز الكواري (قطر)
سعيد يقطين (المغرب)
شكري المبخوت (تونس)
عبد العزيز عبد الله تركي السبيعي (قطر)
عبد الله العشي (الجزائر)
عقيل مرعي (إيطاليا)
علي الكبيسي (قطر)
فاضل عبود التميمي (العراق)
مصطفى قرقرز (تركيا)
معجب العدواني (السعودية)
هادي حسن حمودي (بريطانيا)
Eric Gautier (France)
Luc Deheuvels (France)

قواعد النشر في المجلة

1. تنشر المجلة البحوث العلمية الرصينة باللغة العربية في حقل الآداب والعلوم الإنسانية.
2. تخضع البحوث المنشورة للتحكيم على نحو سري.
3. يجب ألا يقل عدد كلمات البحث عن 4000 كلمة، ولا يزيد عن 8000 كلمة.
4. ترسل البحوث باسم رئيس التحرير على البريد الإلكتروني للمجلة.
5. أن تتضمن الصفحة الأولى من البحث:
 - ✻ عنوان البحث باللغة العربية،
 - ✻ اسم الباحث باللغة العربية،
 - ✻ اسم الجامعة،
 - ✻ البريد الإلكتروني،
 - ✻ ملخص البحث باللغة العربية (فقرة لا تقل عن عشرة أسطر، ولا تزيد على عشرين سطرا).
 - ✻ الكلمات المفتاح (لا تزيد عن سبع كلمات)
6. أن تتضمن الصفحة الثانية من البحث:
 - ✻ عنوان البحث باللغة الإنجليزية،
 - ✻ اسم الباحث بالحرف اللاتيني،
 - ✻ اسم الجامعة بالحرف اللاتيني،
 - ✻ البريد الإلكتروني،
 - ✻ ملخص البحث باللغة الإنجليزية (في فقرة لا تقل عن عشرة أسطر، ولا تزيد على عشرين سطرا).
 - ✻ الكلمات المفتاح باللغة الإنجليزية (لا تزيد عن سبع كلمات)
7. توضع الهوامش في أسفل كل صفحة، وتكون مربوطة بشكل آلي بالمتن. كما يبدأ ترقيم الهوامش عند بداية كل صفحة جديدة.
8. إذا تكرر ذكر المرجع في الصفحة نفسها، يشار إليها بـ "المرجع نفسه".
9. توثق الإحالات على النحو الآتي: يذكر اسم المؤلف العائلي فالشخصي، ثم عنوان الكتاب أو المقال، ورقم الصفحة. (على أن يوثق المرجع بشكل كامل في لائحة المصادر والمراجع ويكون ذلك على النحو الآتي: اسم المؤلف، عنوان الكتاب أو المقال، الجزء / أو العدد، الطبعة، مكان الطبع، تاريخ الطبع).
10. أي بحث لا تتوفر فيه الشروط الشكلية المذكورة يستبعد تلقائياً دون النظر في محتواه.

فهرس

استهلال

- 13 سعيد يقطين. المغرب من أجل تفكير نسقي

متون

- 17 سامي حسين علي القصوص المفارقة وخطاب الضد في شعر نزار قباني مقارنة تحليلية نقدية
37 لخضر هني اللامنتمي واختراق النموذج الموصوف (مقاربة ثقافية في الشعر الجاهلي)
55 محمد صالح حماد الحصيني تجليات الصورة في شعر صالح الزهراني دراسة في التشكيل والدلالة

دلالات

- 79 لؤلوه حسن العبد الله العوالم الممكنة في الرواية التاريخية قراءة في رواية القرصان
95 خالد علي ياس سنن النص نحو تأويل سوسولوجي للعلامة السردية النقد العربي الحديث مثالا
109 رامي أبو شها الخطاب القيمي في القصة القطرية الإشكالية... والممارسة
129 أم السعد حياة وظائف تمثيل الخطاب الغيري في الرواية وفق المنظور الباخثيني

سياقات

- 143 حسيب الكوش سيميائيات الأنساق الحية: من العلامات العصبية إلى النص الجيني
165 عادل فتحي رياض البناء النسقي في القرآن مفهومه وتطبيقه النحوي

لغويات

- 189 امحمد الملاخ التواصل: أسسه اللسانية ومقتضياته المعرفية
- 207 عبد السلام السيد حامد الاستماع من منظور الكتابة ولسانيات المنطوق
- 225 محمّد الناصر كحولي بلاغة الإقناع في صور الخطاب المقامة الجرجانية للهمذاني أنموذجا



دعوة للمشاركة

في العدد القادم (ربيع 2017) حول موضوع

« نظرية السياق »

لغويات أنساق



التواصل أسسه اللسانية ومقتضياته المعرفية

د. امحمد الملاخ
الكلية المتعددة التخصصات بأسفي
جامعة القاضي عياض، مراكش / المغرب
elmellakh_mhammed@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2017/06/05

تاريخ القبول: 2017/09/11

الملخص:

نسعى من خلال هذا البحث إلى دراسة ثوابت الفعل التواصلية في شقه اللساني، مركزين على تطور مجموعة من المقاربات التي جعلت من مكونات ووظائف السيرورة التواصلية موضوعا لها. وسنبين كيف أن التحولات التي شهدتها مجموعة من الحقول المعرفية كان لها دور في تطوير الدراسات التواصلية باعتبارها مجالا علميا بينيا.

الكلمات المفتاحية:

المعرفية - التواصل - المقام - الاستدلال - السنن - النموذج - السيرورة - المنعطف - السياق

Communication: its linguistic basics and cognitive implications

Mhammed Elmellakh

Qadi Ayyad Universty. Marrakech. Morocco

elmellakh_mhammed@yahoo.fr

Abstract:

We aim through this research to study the basics of the communicational act in its linguistic aspect. Our focus will be on the development of the concept of communication in different scientific fields. Several models based on interdisciplinary approach contributed to the deconstruction of the components and functions of communication.

Key words:

cognition- models – communication – code- context –inference- turn- process

مقدمة :

وعامة منسجمة ومكتملة للتواصل؛ فالمشهد العلمي العام يكشف أننا إزاء ثورة نماذج للتواصل، نماذج ذات صلاحيات محدودة تصلح لما تنطبق عليه، تقتصر بمجال مخصوص وصفا وتفسيرا⁽¹⁾، لصعوبة احتواء تعقد الظواهر التواصلية الإنسانية في نظرية عامة، مثلما كان عليه الأمر مع نظرية الاتصال التي صاغ أسسها شانون وويفر. فثمة صعوبة في نمذجة عناصر الفعل التواصلية ومكوناته في مستوياته الفيزيائية والثقافية والنفسية والاجتماعية وفي رهاناته وأنماطه ووظائفه.

ينبغي إذن أن ننظر إلى كل نموذج في محاولته القبض على بعض محاور ارتكاز العملية التواصلية تاركا عناصر أخرى لنماذج مغايرة، تحتكم إلى منطلقات معرفية أخرى.

1- اتجاهات البحث في التواصل

يكشف راهن التنظير للتواصل اليوم عن انشطار انشغال المؤسسات الأكاديمية الدولية إلى ثلاثة أقطاب بحث كبرى:

● قطب أول: تتقاطع فيه علوم الأعصاب (بيولوجيا الأعصاب، فيزيولوجيا الأعصاب، صيدلة الأعصاب، سيكولوجيا الأعصاب، المعلومات) والعلوم المعرفية (سيكولسانيات، المنطق، المعلومات، السيكولوجيا المعرفية، اللسانيات). يشغل هذا القطب بقضايا تقتصر بعلاقة التواصل بالدمغ إدراكا وتمثلا ومعالجة للمعلومات.

● قطب ثان: تلتقي فيه العلوم المعرفية بالعلوم الهندسية (معلومات، إلكترونيك، نماذج رياضية، آلية). يروم نمذجة خصائص ومكونات وعناصر التواصل

اقترن البحث في ماهية التواصل ومكوناته وثوابته ووظائفه وآلياته بالتطورات المتلاحقة للحياة الاقتصادية والسياسية والعلمية والتكنولوجية والتربوية للمجتمعات الحديثة.

تتقاسم مجموعة من العلوم النظر في مقومات التواصل ومقتضياته، ومن الصعب إيجاد قواسم معرفية ومنطلقات نظرية أو منهجية مشتركة بين هذه المقاربات. فهناك من جهة تنوع في تخصيص مجالات التواصل يعكس إلى حد بعيد القيمة المعرفية التي تحظى بها الظواهر التواصلية في مجموعة من التخصصات العلمية، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر بعضا منها: التواصل الإنساني والحيواني، والتواصل التقني، والتواصل إنسان-آلة، والتواصل بين-ثقافي، والتواصل الجماهيري، والتواصل المؤسسي، والتواصل السياسي، والتواصل الإعلامي، والتواصل الوسائطي، والتواصل الأدبي.... ويمثل هذا التنوع مشتلا علميا خصبا لتطور مقاربات بينية وعبرية تتداخل فيها العلوم وتتكامل في وصف الظواهر وتفسيرها، وقد تعزز هذا المنحى مع بروز تخصصات علمية دقيقة، تكشف توسعا جديدا لخريطة العلوم المعاصرة.

ومن حسنات هذا التوسع بناء نماذج جديدة للتواصل أو تعديل وسد ثغرات النماذج الكلاسيكية الموروثة عن نظرية الإعلام وصيغها المعدلة في النظريات اللسانية الوظيفية للغة. ويكمن الملمح البارز لهذه النماذج الجديدة في ارتكازها على منظورات علمية متنوعة تنتمي إلى علم النفس أو علم الاجتماع أو التداوليات المعرفية أو تحليل الخطاب أو منظومة العلوم المعرفية عامة. ويشكل ذلك ثورة في النساج الإستيمولوجي العام لنظرية التواصل، فلم يعد بالإمكان الحديث عن نظرية موحدة

(1) . دافنسا عن تصور مماثل للعلاقة بين النظرية والنموذج في العلوم المعرفية المعاصرة في كتابنا: قضايا إستيمولوجية في اللسانيات. ينظر، امحمد الملاح، حافظ إسماعيلي علوي، قضايا إستيمولوجية في اللسانيات، ص 82.

تواصل متجذر في منظومات علائقية، يربط من خلالها الإنسان علاقته بالآخر وبذاته وبماضيه وبحاضره وبمستقبله وبالعالم المحيط به. فالتواصل يجري داخل الذات وعبرها وبينها وبين الذات، ومن ثمة المظهر العلائقي الذي يحكم الفعل التواصلي الإنساني. فالميكانيزمات التي يدبر بواسطتها الذهن ويدير التواصل اللساني، لا تتفصل عن الميكانيزمات التي يستعملها في تواصلات غير لغوية، وإن كان التواصل اللغوي خاضعا لخصوصيات ينبغي استجلاؤها.

يمثل التواصل مظهرا مركزيا لجميع أشكال تبادل العلامات لفظية وغير لفظية بين البشر، وبين التسنين الثقافى وتمييط السلوكات الاجتماعية عبره⁽³⁾. فالأصل اللاتيني لكلمة «تواصل» معناه جعل شيء مشتركاً بين طرفين، مما يبرز المظهر العلائقي والاجتماعي لعملية التواصل، لأنه يتجاوز حدود التواصل داخل الذات الفردية، التواصل الداخلي، نحو تقاسم/ نقل المعلومات والأفكار بين الذات الاجتماعية.

يقتضي النشاط التواصلي اللفظي تفعيل آليات مركبة، يستعصي الإمساك بها خارج نظرية تستحضر تفاعل مجموعة من الملكات والكفايات وتشاركها. فالفعل التواصلي مركب في بنائه لعدة اعتبارات:

- أولاً، لانشطاره بين سيرورة إنتاج وسيرورة فهم متداخلتين وغير منفصلتين في التبادلات اللفظية.
- ثانياً، لأن سيرورة استخلاص معنى الملفوظات والسيرورة التأويلية تتشكل وتتطور في كنف التفاعلات الاجتماعية بين الأفراد.
- ثالثاً، لأن السيرورة التواصلية بين الأطراف قد تتجح، وقد تفشل لاعتبارات تستلزم إمعان التحليل.
- رابعاً، لأن المعاني والتصورات التي تتشكل في أذهان

(3) Olivier Houde, vocabulaire de sciences cognitives, pp 94 - 100.

الإنساني ومحاكاتها وتقييسها، في إطار علاقة الآلة بالإنسان.

● قطب ثالث: مؤسس على العلوم الإنسانية والاجتماعية، ينشغل بمدى تأثير تقنيات التواصل (المعلومات، وسائل التواصل عن بعد، الوسائل السمعية البصرية) على بنية المجتمع وأنساقه الفكرية والقيمية والاعتقادية وسلمية أدوار الفاعلين الاجتماعيين، وحجم التأثيرات السلوكية لتقنياته ومداهما⁽¹⁾.

يمثل هذا التنظيم الثلاثي لأقطاب البحث المظهر التفاعلي للتخصصات العلمية، وذلك ضمن شبكات ومنظومات علمية مترابطة، تعكس توزع البحث الحالي بين المظهر التقني الصرف المنشغل بصورنة آليات التواصل ومحاكاتها بهدف بناء آلات قادرة على محاكاة المظاهر التواصلية للبشر، وثانياً المظهر الإنساني والقيمي الذي تسعى العلوم الاجتماعية والإنسانية إلى استكناه تجلياته وقوانين اشتغاله.

وتتشغل الأقطاب الثلاثة مجتمعة بأسئلة محددة: ما هي الميكانيزمات التي تعالج من خلالها الذات الفردية والجماعية المعلومات والأخبار؟ كيف تتفاعل الذات مع العالم المحيط بها؟ وهل يمكن نمذجة بعض تلك الميكانيزمات ومحاكاتها بواسطة الآلة؟

2- التواصل اللساني: المقومات والآليات

سنركز فيما يلي على التواصل اللساني، مستحضرين اقترانه بالآليات العامة التي يستعملها الجهاز العضوي الإنساني للتواصل مع عالمه، وفي نهاية المطاف فالتواصل اللساني فرع من أنظمة التواصل المعقدة التي يحكم إليها الكائن في تفاعله مع محيطه⁽²⁾. ومن ميزاته أنه

(1) ينظر للتوسع: دومنيك فولتون، علوم التواصل، ضمن: التواصل نظريات ومقاربات، ترجمة عز الدين الخطابي وزهرة حوتي، منشورات عالم التربية، ص114.

(2) أبراهام مولز- كلود زيلتمان، التواصل، ضمن: في التداولية المعاصرة والتواصل، ترجمة وتعليق محمد نظيف، ص7.

مسلمة ثابوية في أنساق معارف الحضارات السابقة،
وبين البحث الدقيق في الآليات وصياغة القوانين
والتفسيرات باعتباره مسألة حديثة.

تشكل البدايات مع نماذج الاتصال والإعلام
التي صاغها علماء رياضيون في مجالات الاتصال
عن بعد، وتحديدًا الإرسال التلفزيوني. أشهر النماذج
ما عرف بنموذج شانون وويفر، الذي تبناه مهندسو
الاتصالات، واستوحاه اللسانيون بعد ذلك لنمذجة
عمليات التواصل اللساني. وهو نموذج يبنّي على
ثوابت تمثل العناصر المركزية في الاتصال، وهي
«المرسل» مصدر الرسالة، قد يكون فردًا أو آلة
أو مؤسسة، و«المرسل إليه» أو «المستقبل» يستقبل
رسالة «المرسل»، و«الرسالة» وهي المعلومات أو الأخبار
المقولة، ثم «القناة» التي قد تكون قناة صوتية
أو مرئية أو آلة، و«السنن»؛ أي النظام الذي ينظم
عناصر الرسالة ووحداتها، فإذا تعلق الأمر بالكلام
المنطوق، فالإشارة الصوتية ليست مجرد ضوضاء،
وإنما رموز يحكمها نسق من القوانين والقواعد
التنظيمية، يمثلها النسق اللغوي، فالنسق يتوسط
العلاقة بين الصوت والمعنى. فالأفكار والأخبار يتم
تسنيها في رسالة عبر وساطة السنن، الذي يشكل
رأسمًا مشتركًا يتقاسمه المرسل والمستقبل، ويمثل
مخزونًا ذهنيًا، يحتكم إليه كلاهما لعقد السنن
وتفكيكه.

تشوب هذا التصور مجموعة من النقائص:

- حتى ينسجم مع خصائص النظام اللغوي
الإنساني نحتاج إلى إغنائها، بعنصر «المرجع»
و«السياق» وهو ما سنلاحظه في النماذج اللاحقة
التي بنيت على نموذج شانون وويفر، بما فيها
نموذج ياكوبسون؛ فالرسالة اللغوية تحيل على
مرجع واقعي أو متخيل، ويرتبط النظام اللغوي

الذوات المتواصلة لا تحملها الرسائل اللفظية كاملة،
ثمة أشياء تترك للتخمين وللافتراض وللإستلزام
وللتضمين.

- خامسًا، لأنه بواسطة اللغة ننجح في خلق أفعال وأعمال
وتغيير العالم الذهني للآخر.

- سادسًا، لأن ثمة توترا بين غايات الكلام وأغراضه من
جهة وبين وسائله من جهة أخرى، مما يجعل الفعل
التواصلية مشدودًا إلى مبادئ من قبيل المردودية
والملاءمة والنجاح والفائدة⁽¹⁾.

2-1 نماذج التواصل اللساني: البدايات ومنعطفاؤها

تتفاوت نماذج التواصل⁽²⁾ في نجاعة رصدها
للتعقيد السالف ذكره، ويرجع هذا التفاوت إلى
تباين المنطلقات والمرجعيات. لكن بشكل عام لا بد
من رصد المحطات التاريخية الكبرى التي تشكلت
في كنفها معظم التصورات حول مكونات التواصل
اللساني وخصائصه ومقتضياته وأنساقه مع ربطها
بمرجعياتها النظرية والمنهجية.

بداية لا بد من الفصل بين الحدس العام
الذي رافق التفكير في اللغة عبر تاريخها من داخل
المرجعيات الإغريقية والعربية وغيرها، والذي
ربط بين اللغة والتواصل، فاعتبار اللغة أداة تواصل

(1) إذا تأملنا الظاهرة اللغوية من منظور تطوري أحيائي، نجد أنفسنا أمام مسائل
ملغزة، فمن جهة لا توجد قصدية إرادية بيولوجية للتواصل عنده، ولا حاجة
كذلك فطرية للتواصل على مستوى أعضائه الحية، ولا حاجة للفكر إلى كلام،
لأن هناك ما يبين أن الفكر يمكن أن يقوم في الذهن/ الدماغ في استقلال عن
اللغة. ووفق هذا التصور يمكن التشديد على كون التواصل اللفظي والتواصل
عموما ظاهرة انثاقية من الناحية الأحيائية عن أنظمة معالجة وتخزين
المعلومات ممثلة في الاكتساب والتعلم والتخزين والتذكر والتمثيل، وربما
عن قدرات معرفية أخرى. انظر: مصطفى بوعناني، التواصل اللغوي بين
المقتضيات اللسانية والمعرفية، ضمن: التواصل وأبعاده اللسانية والسيكولوجية
والتربوية والتقنية، ص 55 - 56.

(2) من أجل رصد تصنيفي لنماذج التواصل، ينظر، نور الدين رايص، نظرية
التواصل واللسانيات الحديثة. وانظر: امحمد إسماعيلي علوي، التواصل
الإنساني: دراسة لسانية.

المقاصد إلا بشكل جزئي، فالأقوال قرائن من بين أخرى للاهتداء إلى مقصد المرسل، فإذا كانت الملفوظات تحمل عددا غير محدود من الدلالات من الناحية المبدئية، يبقى إشكال التواصل مرتها بكيفية تحديد مقصد المتكلم والتعرف عليه، وينبغي الفصل بين الإخبار في العملية التواصلية والمعنى. فدهي أن هناك مسافة تصويرية بين الخبر والمعنى، الآلات يمكن أن تتناقل الأخبار لكن وحده البشر يتواصل بواسطة المعنى. ولقد كان سبيربر في تداوليته المعرفية موقفا عندما ميز بين القصد الإخباري والقصد التواصلية مستندا في ذلك إلى غرايس⁽²⁾.

- تقوم المسلمة الضمنية في نموذج الاتصال على أن كل معنى أو فكرة أو تصور يرتبط بعلامة؛ أي أن كل ما يمكن تصوره يمكن ترميزه وتسنيته. فالعلامات أوعية للأفكار. ويصطدم هذا التمثل بصعوبات شتى، أولا، عالم العبارات وإن اتسع مداه، لا يمكن أن يحتوي عالم المعاني والمدلولات. ثانيا، العلاقة بين الملفوظ والمعنى ليست علاقة واحد بواحد. لا يوجد مقابل ملفوظ واحد معنى واحد. يمكن للملفوظ أن يحتمل تأويلات متعددة في سياقات تخاطبية متعددة. ويتعلق ذلك بما يسمى بمشكل الالتباس، زد على ذلك أنه إزاء قول نجد تضمينات واستلزامات لا تسنها أو ترمزها العبارة، فسيروية بناء المعنى تبين أن التضمينات والاستلزامات تستنتج ولا تُسنن.

- يصعب توسيع الطرح المذكور أعلاه إلى أنظمة علامات أخرى، من قبيل النصوص الأدبية، هل النص الأدبي حامل لرسالة محددة سلفا تسبق صياغته وتشكل بنياته وأساقه؟ أليس

(2) Anne Reoul. langage et cognition humaine. pp42- 43.

رأسا بالعالم، كما نتخيله أو كما تتمثله أو نعيشه، ولا يمكن أن يحيل على نفسه. والرسالة مربوطة بسياق إنتاج بشكل أو بآخر، بغض النظر عن كيفية تخصيصنا للسياق، أو النظريات التي يمكن أن نبنيها للسياق التخاطبي.

- إن عملية عقد السنن، تتحكم فيها مجموعة من المحددات النفسية والاجتماعية، ولا يمكن أن تكون عملية حسابية آلية تحتكم إلى مخزون ذهني ساكن من الرموز وقواعدها التنظيمية، وينسحب الأمر نفسه على تفكيك السنن لاستخلاص الخبر أو المعلومات، فعملية التفكيك ليست استخلاصا للمعنى بشكل آلي، بل هي تحيل على تدخل آليات فهم وتأويل، تحكمها محددات نفسية وثقافية واجتماعية.

- فكرة السنن المشترك والموحد الذي يتقاسمه المرسل والمرسل إليه، ضرب من التجريد والأمثلة؛ فهناك تفاوت في درجات امتلاك السنن والتحكم في عناصره، فالأفراد وإن تكلموا اللغة نفسها، فإنهم يتفاوتون في مخزونهم المعجمي، والمعرفي، كما أن سجلات اللغة عندهم غير متماثلة. ويمثل ذلك مدعاة ومسوغا لإدراج مفهوم اللغات الفردية كما ستبين كاترين كيربات أوريشيوني، والذي سيمثل عندها مدخلا مناسباً لمفهوم التعدد السنني.

يقابل وحدة السنن المزعومة مفهوم تعدد السنن. وسيطور هذا المفهوم مع التعديلات التي طالت نموذج ياكوبسون في عوامل اللغة ووظائفها. ولنا عودة إلى الموضوع.

- التواصل بين البشر مقاصدي⁽¹⁾، والأقوال لا تحمل

(1) تدعو بعض الأعمال إلى التخلي عن الصيغة القوية للقصيدة، بدعوى أن التصور العقلاني الكاريزي للذات، باعتبارها ذاتا واعية لأفكارها، لا يمكن التسليم به، في ظل نتائج التحليل النفسي، خداع الذات لنفسها والتضليل وسلطة الوهم، ثم هل القول محكوم بمقصدية أحادية أم هناك تعددية مقصدية؟ ماذا عن المقاصد الجماعية الثابتة في القول الفردي أو الأقوال التي لا يستطيع أصحابها أن يدافعوا عن مقاصد واضحة، الأقوال المهمة المقاصد؟

ولا تحكّم المرسل في سيرورة الإنتاج تبعاً للآثار التي حققها ملفوظه أو لم يحققها، وليس هناك إمكانية للحديث عن التأثير على المرسل إليه باستخدام استراتيجيات خطافية تتنوع بحسب وضعيات التواصل ورهاناته المرسومة سلفاً. إن انعدام التفاعل بين ذات المرسل والمرسل إليه في النموذج الاتصالي الآلي سيتم استبداله فيما بعد بما عرف بالنموذج الأوركستري الذي يقر بتفاعل الذوات وبالبناء المشترك للرسالة (كل مرسل هو مستقبل وكل مستقبل مرسل بالقوة).

- يحصر هذا النموذج وصفه في الرسائل الإخبارية البسيطة، غير أن توسيعه إلى أنساق سيميائية معقدة من قبيل الأساطير والأدب والطقوس وغيرها مما يدخل في سوق التبادلات الرمزية بين البشر؛ أي كل أنساق العلامات المندمجة في كونه التواصل، يبين قصوره في وصف آليات اشتغالها.

- يفترض هذا النموذج المرسل والمرسل إليه، ذوات غير قابلة للانشطار، وسيتبين مع نظرية تعددية الأصوات مع ديكره أنه ينبغي التمييز بين المتلفظ والمتكلم، وأنه داخل الملفوظ تتصادى أصوات مختلفة (ديكره، باختين).

- يتم في ظل هذا الطرح، تصور حيادية القناة بالنظر إلى الرسالة أو الخبر، حيث تعتبر حاملاً محايداً، لا يعدل محتوى الخبر، غير أن البحوث المنجزة في إطار سيميائيات التواصل وغيرها من التخصصات الحديثة في تحليل الخطابات متعددة الصيغ تبين أن الوسيط أو القناة يعيدان تشكيل المعنى. لنستحضر الرسالة السياسية في التواصل السياسي وتسنيها عبر قنوات وحوامل مختلفة من قبيل الملصقات أو شبكات التواصل

هذا الطرح هو ما شكل مأزق البنيوية في الأدب بادعائها وجود معنى محايث يخضع لفك سننه من قبل محلل مزود بآليات تحليل البنيات، والبنيات أسنن لعقد المعنى/ الرسالة؟

ولللخروج من مأزق محايدة المعنى لحامل ما، وليكن نصاً أو ما شاكل، كان ينبغي أن تنتظر تطور مجموعة من الدراسات في العلوم المعرفية والتداوليات الأدبية والنظرية التلطفية وتطبيقاتها في حقل الأدب، ومؤدى المنعطف الجديد new turn، أن المعاني شديدة الاقتران بوضعيات تلفظية مركبة تتضمن المرسل والمتلقي وإكراهات مرتبطة بأنواع الخطاب وبخصوصية الممارسات الاجتماعية. وحتى في علم دلالة الملفوظ في التداوليات اللسانية تم التمييز بين مستويين للمعنى، أعني الإقرار ببرنامجين إما منفصلين أو متكاملين: برنامج يحدد الشروط اللسانية للدلالة داخل الملفوظ، وبرنامج يدرس المعنى في ارتباطه بوضعيات تواصلية محددة. هذه الصيغة أنتجت على الأقل برنامجين علميين: التداوليات المندمجة (مندمجة في الدلالة)، والتداوليات المعرفية التي تقر بعدم انتماء التداوليات إلى اللسانيات أصلاً، وإنما ترتبط مسائل المعنى بالعلوم المعرفية التي تبحث في شروط إدراك الذهن لمحيطه وفهمه.

- المرسل إليه مستقبل سلبي في هذا النموذج، تصله الرسالة ولا يشارك في بنائها، ولا يسهم في سيرورة إنتاج العبارة، لأن ذوات التواصل منفصلة في هذا النموذج. فالمعنى ينتقل من مكان إلى آخر، وعندما تتبادل الذوات الأدوار فذلك يتم في إطار غير تفاعلي، لا توجد فيه تغذية راجعة. ولا وجود في ظل هذا التصور لأهداف التواصل من تأثير في المرسل إليه وتعديل معتقداته وسلوكه،

لسانية قائمة على معارف صوتية وصرفية وتركيبية تشكل قوام السنن لإنشاء التواصل، فالكفاية⁽²⁾ التواصلية تتم بموجب ترهين كفايات متعددة تمثل كفاية السنن إحداها.

فعلى الرغم من الثغرات التي حفت النموذج الاتصالي في صيغته التقنوية (نموذج شانون وويفر) فإنه لا أحد يجادل في أهميته في تطوير البحوث المنجزة حول نقل الصوت أو الصورة، مع التحكم الكمي والرياضي في حجم المعلومات التي تنتقل عبر الآلات، مع الحد من سبل التشويش التي قد تؤدي إلى التخفيف من كم المعلومات المنقولة، أو تؤثر على وضوح الرسالة.

لقد أسفر التطور في تكنولوجيا وعلوم الإعلام والتواصل عن تجويد آلات قادرة على نقل الدفق الهائل للمعلومات بدقة وجودة عاليتين، وما زالت المجتمعات المعاصرة تجني ثمار هذه الثورة والتقدم إلى حدود الساعة.

يجب أن ننظر إلى هذا النموذج في حدود ما وضع له، ليس القصد منه صياغة نمذجة مدققة ومكتملة للتواصل اللساني والتواصل الإنساني عامة. إلا أنه ظل ثاويًا خلف مجموعة من النماذج التي صيغت أو استدركت على ثغراته. وما يوحد مجموعة منها خاصة النماذج الواصفة للسلوك اللساني أنها قامت على النموذج السنني الذي يحضر بصيغ مختلفة بما فيها دورة الكلام عند سوسير التي تمثل تجليًا من تجلياته.

2- 2 نماذج بديلة: النمذجة بالكفايات والاستنتاج والوظائف بديلاً لنموذج السنن

فيما يلي سنقدم في صيغة مختزلة أهم التعديلات التي طالت النموذج السالف الذكر:

- نموذج هارولد لاصويل: تأسس على التواصل

الاجتماعي أو قنوات التواصل الجماهيري من تلفزة وإذاعة وأنترنت. ويرتبط بهذا المشكل ما اصطلاح عليه بالشفير العبري. أضف إلى ما ذكر مشكل الاحتكام إلى أكثر من قناة في نقل الرسالة، فالتواصل اللساني عند البشر لا يعتمد على قناة واحدة، حيث تشتغل القناة السمعية والبصرية (حركات الوجه وتعبيراته، نبرات الصوت، حركات اليد) اختصاراً ما يعرف بلغة الجسد. والإشكال هنا، كيف تتوزع عناصر الخبر/ الرسالة/ المعنى على أكثر من قناة؟ بتعبير آخر كيف يصير الجسد في كليته «حاملاً» للمعنى، فالمعنى وأجزاؤه وعناصره موزعة على قنوات الجسد.

وانطلاقاً من الملاحظات والاعتراضات السالفة الذكر يمكن أن نستجلي بعض العناصر التي تمثل مدخلا لتطوير نموذج للتواصل اللساني، نحدد ما في شكل أولي في صورة مفاهيم عامة. غير أن هذه المفاهيم ستجد طريقها نحو نظريات ستعمل على استدماجها لتبيان آليات اشتغال الفعل اللغوي. يتعلق الأمر بالمفاهيم التالية: السياق، المقصد، الأغراض، التأثير، تعددية السنن، تعددية المرجع، الاستنتاج، التغذية الراجعة، التشارك في بناء المعنى...

لقد كان ينبغي أن نتظر تطور مجموعة من النظريات والاتجاهات داخل حقل اللسانيات وخارجها، للخروج من انحسار نموذج السنن الذي تكرر مع اللسانيات البنيوية⁽¹⁾، ويتعلق الأمر بلسانيات الكلام والتداوليات وتحليل الخطاب ونظرية التلفظ ونظريات الحجاج وإثنوغرافيا التواصل والعلوم المعرفية ونظرية أفعال الكلام ونظرية المحادثة. لم يعد الأمر يُختصر في ملكة

(2) من أجل معالجة دقيقة لمفهوم الكفاية في النظريات اللسانية والمعرفية الحديثة ينظر، عز الدين البوشخي، التواصل اللغوي: مقارنة لسانية وظيفية.

(1) ينظر، مبارك حنون، «عندما تخلق النظرية مقومات تجاوزها: قراءة في مصير وظائف اللغة»، ص 141.

نموذج السنن، ومعظمها كما سنين مؤسس على مفهوم متعدد للملكات وللكفايات، مبينة عدم صحة النماذج التي تقرن نجاعة الكفاية التواصلية بامتلاك القدرة اللسانية، وبالاستثمار الأمثل للموارد المعجمية أو التركيبية أو الدلالية، لأن هذه الموارد كما سيتبين مع هذه الدراسات تتحكم فيها مصافي متعددة، تحدها الاعتبارات الفردية/ النفسية/ الثقافية، أو الاعتبارات الجماعية/ المؤسساتية، واعتبارات نوع الخطاب الذي نستعمله، وبكلمة واحدة تشتغل هذه المصافي كقيود أو إكراهات متحركة في سيرورة الإنتاج أو الفهم⁽²⁾.

يتعين إذن، الإقرار، بمسألتين:

- **المسألة الأولى:** أننا إزاء تحول وانتقال من الاعتماد على السنن إلى الاحتكام إلى السنن والاستدلال.

- **المسألة الثانية:** ترتبط بتوسيع مفهوم الملكة التواصلية بالانفتاح على مفترض تفعيل الكفايات؛ أي أن الملكة التواصلية تبني على ملكات متفاعلة في سيرورة الإنتاج والتأويل.

نذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض الأسماء والمحطات التي اقترنت بهذا التحول دون أن يكون غرضنا رسم منحى تطوري مضبوط: مفهوم القدرة التواصلية عند ديل هايمز، نموذج مستعمل اللغة الطبيعية عند سايمين ديك، مكونات القدرة التواصلية عند كنالي وسواين، نموذج كفايات التخاطب عند كاترين كيربات أوريشيوني، نظرية الملاءمة مع سبيربر وولسون.

ثمة قواسم مشتركة ومتغيرات بين هذه

الجماهيري، وحاول ملامسة ثوابت النشاط التواصلية من خلال الجمع بين ذوات النشاط التواصلية ووظائفه وآلياته عبر الإجابة عن الأسئلة التالية: «من؟ ماذا يقول؟ بأية قناة؟ مع من؟ ما الأثر المتوقع من الكلام». ثمة انفتاح على تقنيات التواصل والتأثير المتوخى، مع الحرص على إدراج المحددات النفسية والاجتماعية.

- نموذج رايلي ورايلي: نجد في هذا النموذج تركيزا على محدد التفاعل، وانتماء الذوات المتفاعلة إلى مجموعات كبرى أو صغرى، محكومة بسياق ثقافي أو اجتماعي.

- نموذج بيرلو: يتضمن هذا النموذج تركيزا على مهارات التواصل والعوامل الثقافية والمعرفية، وحدود تمثل المتواصلين لأدوارهم الاجتماعية، مع التشديد على تسنين المعنى بواسطة الحواس والجسد⁽¹⁾.

لعل أهم ما يميز هذه النماذج تركيزها على السلوك التواصلية في شموليته، وعدم اقتصرها على البعد اللساني. ويعود ذلك إلى ارتباطها بمجالات تواصلية تستوجب استحضار بارامترات متنوعة مؤسسة للنشاط التواصلية مثل مجال التواصل الجماهيري. وبالموازاة تشكلت مجموعة من النماذج المؤسسة على البعد اللساني بغاية ضبط المقترضات اللسانية والمعرفية المتحركة في الفعل التواصلية المؤسسة على اللسان، ولقد تشكلت داخل حقول معرفية متعددة مثل اللسانيات الاجتماعية واللسانيات الوظيفية والتداوليات والعلوم المعرفية وتحليل الخطاب.

لقد حاولت هذه النماذج الجديدة تجاوز ثغرات

(2) . يمكن أن نلاحظ تحكم هذه المصافي والإكراهات في لعبة التصريح والتضمين في الخطاب السياسي. فكثرة التلميح والتضمين في خطاب سياسي، تحدها هوية أطراف التواصل وتمثلهم لأدوارهم، والنماذج الذهنية المكونة حول الخصوم المفترضين ووضعية التواصل...

(1) . حنون مبارك، «عندما تخلق النظرية مقومات تجاوزها: قراءة في مصير وظائف اللغة، ضمن»، ص143.

وتعدد بنياته التي يمكن تسخيرها لأداء غايات وأغراض متنوعة، وهذا ما يبرز بجلاء من خلال الوظائف المختلفة المقرونة بعوامل التواصل اللفظي: المرسل / الوظيفة التعبيرية، المرسل إليه / الوظيفة التأثيرية أو الإفهامية، السياق / الوظيفة المرجعية، الرسالة / الوظيفة الشعرية، الاتصال / الوظيفة الانتباهية، السنن / الوظيفة الميتالسانية.

لقد ارتبط مشروع ياكوبسون بأجندة علمية مترابطة، ولذلك لا ينبغي أن تقرأ الخطاطة بشكل مختزل، كما يجري في كثير من الدراسات المختصرة، بمعزل عن طموح ياكوبسون العلمي، وهكذا تحدد المسعى عنده في ربط اللسانيات بعلم الشعر أو بالشعرية، أو ما يجعل من الرسالة اللفظية شعرا، مع ربط الشعرية بخصائص بنيات اللغة ووظائفها، ثم قرن خصائص النظام اللفظي بخصائص أنظمة علامات أخرى، من خلال إرساء برنامج للبحث في الخصائص المشتركة لأنساق العلامات. وهو ما ستضطلع به السيميائيات العامة. علاوة على الإقرار بمركزية التواصل، وباختراق الوظيفة التواصلية للوظائف الأخرى وإن احتلت مرتبة ثانوية، في إطار هرمية الوظائف وسلميتها، وهي هرمية محكومة بمفهوم المهيمنة. ويمكن البحث عن التراتبية وعن تجلياتها وعن آليات اشتغالها في أنماط مختلفة من الخطاطات؛ لذلك أغنت نظرية الوظائف في صيغتها الياكوبسونية مجموعة من التحاليل المنجزة في نظرية النصوص والخطاطات.

وإذ تأكد في كثير من الأعمال محدودية خطاطة، من نمط خطاطة ياكوبسون وما شاكلها، فلأن هذه المحدودية مردها إلى تأكيد مركزية التواصل،

المقاربات: يتحدد المشترك في كون الملكة التواصلية نتاج تفاعل مجموعة من الملكات، تخصص الملكة اللسانية المعرفة اللسانية الخالصة في استقلالها عن السياق، وتخصص الملكة الاجتماعية الضوابط الاجتماعية والثقافية لاستعمال اللغة من قبيل معرفة الهوية الاجتماعية وتحديد هرمية المتكلمين في السلم الاجتماعي، وتخصص الملكة التداولية مقتضيات استعمال اللغة في مواقف تواصلية محددة بما يتوافق والأوضاع التواصلية، مما يستلزم تفعيل سجلات لغوية خاصة رسمية أو محايدة أو حميمية، تكشف آليات التوافق بين النظام اللغوي والعقل الاجتماعي، أعني قدرة اللغة على التناغم مع تنظيمات اجتماعية غاية في التعقيد. ومن المعلوم أن هذه الملكات تقبل أن تنفرع إلى ملكات أدق، فمثلا لا مناص للقدرة التداولية من قدرة خطابية تمكن من إنتاج سلسلة من الملفوظات المنظمة، يمكن تنظيمها في سجلات نوعية مثل الخطاب الوصفي والسرد وغيرهما. ثم هناك الملكة الاستراتيجية؛ أي مجمل الاستراتيجيات التي يختارها الفاعلون في المجال التواصلية لبلوغ الأهداف التواصلية بكلفة أقل وباحترام للضوابط الأخلاقية والاجتماعية والثقافية المتحكمة في توصلاتهم، يمكن أن تكون الاستراتيجيات لفظية أو جسدية.

وقبل أن يبدأ الاشتغال ببرنامج لسانيات الكلام ونظرية التلطف، ينبغي أن نستحضر القيمة المعرفية لخطاطة ياكوبسون التي تأسست على إشكاليات وظيفية انبنت على تيمة محورية تتمثل في اشتغال السنن ووظائفه⁽¹⁾، في إطار دينامي مؤسس على العوامل والوظائف التي تبرز مرونة النظام اللغوي

(1) ينظر، باتريك شارودو ودومينيك منغونو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهييري وحمادي صمود، وبشكل أخص مدخل: التواصل ووظائف اللغة.

البحث الجماعي عن الحقيقة. لا شك أن اللغة مؤسسة اجتماعية، لكن هذه المؤسسة لا تحكمها قيم التواصل الشفاف ورغبة المشاركين في التفاهم وتقاسم المعارف، ثمة أهواء أخرى يتم تصريفها. وهكذا فمعظم النتائج ذات القيمة التجريبية المتوافقة مع حياة اللغة وتشكلاتها في المجتمع كانت نابعة من الاشتغال الدؤوب للسانين الاجتماعيين ومحلي المحادثات وإثنولوجي التواصل⁽³⁾. لقد أعادت كل هذه الحقول المعرفية تفكيك الأبعاد التجريدية والمتعالية لمفهوم التواصل، مبرزة مناطق جديدة للتواصل أو عدم التواصل ووظائفه. وبموجب هذه الثورات العلمية الجديدة انتقلنا من فضاء تعريفي مبسط نحتت معالمه اللسانيات الوظيفية نحو فضاء تعريفي بقيم دلالية وبمحمولات مفهومية جديدة لمفهوم التواصل.

حاصل ما سبق، أن هناك انتقادات طالت خطاطة ياكوبسون، امتدت نتائجها نحو تطوير خطاطات مدققة لسيرورة الإنتاج والتأويل، بل امتدت هذه النتائج نحو تطوير نظريات الأدب ووظائف أنواعه وأجناسه، كما سنبين، وفيما يلي بيان مقتضب لأهم النتائج المحصلة:

- هيمنة العنصر اللفظي في خطاطة ياكوبسون وتغييب للعناصر غير اللفظية وفعاليتها في التواصل.

- اعتماد المعيار اللساني مبدأ يحتكم إليه في التعرف على الوظائف في الخطابات. فمثلا، هل هناك معيار لساني موحد يمكن الاحتكام إليه لتحديد الوظيفة الشعرية في الشعر العمودي وقصيدة النثر؟ أم أن الأمر يتحدد بإكراهات أجناسية؟ أم يمكن الركون إلى القصد؟

(3) . حنون مبارك، «عندما تخلق النظرية مقومات تجاوزها: قراءة في مصير وظائف اللغة، ضمن»، ص148.

مقرونة بهيمنة النظام اللفظي ومركزيته⁽¹⁾. ولذلك فتوسيع آفاق التحليل تقتضي النظر إلى التواصل اللفظي في إطار أشمل وهو نظرية الفعل التواصلية، كما تجسدها فلسفة التواصل أو النظريات التداولية الأنجلوساكسونية القائمة على الفعل والعمل، مثلما يقتضي الأمر الانفتاح على النظريات النفسية والاجتماعية حول التفاعل. بل كلما اتسعت دوائر التنظير للنشاط الكلامي عند البشر تبين أن أطروحة مركزية الوظيفة التواصلية تشوبها عمومية وتبسيط مفرطان. ففي سياق هذا الصرح النظري، ما هو الموقع الذي يمكن أن تحتله الوظيفة التضميلية أو اللعبية أو الإقناعية أو التسلطية أو الإرغامية؟ هل يسعى البشر فعلا إلى الحرص على إنجاز التواصل؟ ما موقع إساءة الفهم القصدية وعدم الفهم والتأويلات الخاطئة بين الأفراد والجماعات في هذا النظام؟⁽²⁾ رغم أننا لا نعدم الأدبيات التي تؤكد مبدأ التعاون لإنجاح التواصل، وتدير ممثلي acteurs الفعل التواصلية للمشاركين لبلوغ الأهداف التواصلية، وضرورة إخضاع التواصل الاجتماعي لثوابت عقلانية تضبط أخلاقيات التواصل كما نجد عند هابرماس في تصوره للتداوليات الشاملة، فالأصل هو أن نخلق سياقات تواصلية للتعاون وللتوافق وللتراضي وليس للتناظر وللتناوب، في إطار

(1) . يستوجب نقد مركزية النظام اللفظي ليس فقط استدماج المكونات المصاحبة للنسق اللفظي، ما اصطالحنا عليه بلغة الجسد، وإنما التخلص من مركزية العلامة أو الوحدات الدالة المحددة في الكلمة وأجزائها المورفيمات، ففي النظام السيميوطيقي العام، كل شيء يمكن أن يكون دالا: تمفصل الفقرات، الترقيم، المسافة بين الأشخاص أثناء الكلام، الصمت.... ومرة أخرى ينبغي تخلص هذا التصور من سلطة التفسير القسدي: أي أن قصدية الذات ليست شرطا لتوليد الدلالة، فعناصر هذه الأنظمة تحمل شروط التبدل المتقرنة بمحددات اجتماعية أو ثقافية، يمكن تفعيلها في سياقات تأويلية معينة، مثلما يمكن أن تبقى كامنة غير مفعلة.

(2) شهدت العقود الأخيرة تزايدا دالا في الدراسات المشتغلة على موضوعه التواصل بين-الثقافات، وذلك في ظل تصاعد خطاب الهوية والعنصرية والنبيذ والتعصب ودور العولمة الثقافية في خلق أنماط تواصلية جديدة، تعيد نسج الروابط بين الثقافات وفق أفق قيمي جديد.

- المعلومة من سنن إلى آخر. في المسرح يتم التسنين العبري لنص الكاتب عبر سنن المخرج وسنن الممثلين والسنان السينوغرافي، هذا المشكل عابر لأجناس مختلفة، الموسيقى، الترجمة، السينما، شبكات التواصل الجماهيري (القصيدة في اليوتوب: مقروءة ومرئية ومصحوبة بمشاهد فيديو). يمكن أن نخضع قيمة دلالية أو رمزية مثل العنف ضد الأطفال إلى تسنين عبر أسناد مختلفة: تشكيل / سينما / موسيقى / مسرح..

- تغييب الكفايات: في نقدها لخطاطة ياكوبسون، تقدم أوريشيوني⁽²⁾ نموذجا للتواصل قائما على شطر الكفايات إلى كفايات الإنتاج وكفايات المؤول، باعتبارها ضامنة للتواصل اللغوي الناجح. على رأس الكفايات نجد تلازم الكفاية اللسانية والمصاحبة للسان نظرا إلى كون التبادل اللفظي متعدد القنوات، والكفايات التواصلية التي تتفرع عندها إلى كفاية بلاغية تداولية وكفاية ثقافية/ إيديولوجية وكفاية موسوعية وكفاية منطقية.

لقد حظيت الكفاية اللسانية من خلال مكوناتها بنصيب وافر من التحليل والوصف في تاريخ اللسانيات الحديثة، بينما غيبت الكفايات الأخرى، حيث تم تجاهل دور المعارف المسبقة وآليات الاستدلال التي تنتمي إلى منطق اللغة الطبيعي لاشتقاق التضمينات والاقتضاءات والاستلزامات، وكذلك دور الأحكام القيمية الإيديولوجية في التواصل الحجاجي، وتمتلات المشاركين لأدوارهم الاجتماعية وهرميتهم وتأثير هذا التمثل في إنتاج المفوضات وتأويلها.

- الحاجة إلى تصور دينامي للسياق، لأن الصيغة التي طرح بها في خطاطة ياكوبسون، لا تمكن من

- مشكل الأحادية، ويتحدد هذا المشكل في أحادية المرسل والمرسل إليه وأحادية السنن. ومن أوجه الاعتراض على تصور الأحادية، مسألة تعدد الأصوات في المفوضات كما سيبين ديكر، وكذلك في بعض الأجناس، مثلا في الرواية نجد الكاتب والراوي والشخصية الراوي (محافل لفظية). وهناك ما يشكك في أحادية السنن داخل المفوضات البسيطة والأنواع الأدبية، ففي المفوضات التي تتواصل بها، لا وجود لسنن مشترك موحد في أذهان المتكلمين. فهناك تفاوت في السجلات اللفظية والتعبيرية وفي مخزون المعارف. كل ذلك يسهم في صياغة اللغات الفردية، ثمة مشترك دلالي جاهز وهناك المشترك الذي يبني في التفاعل بين الذات؛ أي صيغتان للسنن، بدل صيغة واحدة، متكاملتان ومتفاعلتان، متمثلتان في السنن الجاهز والسنن المبني. ما يجعل التفاهم جزئيا بين الذوات هو كوننا نشترك في سنن جزئي، وأطروحة التجانس واهية. وفي الأنواع الأدبية يتأسس النظام الأدبي على تعدد السنن، خذ مثلا القصيدة العمودية، لديك السنن العروضي وسنن البناء المعماري وسنن الصورة الشعرية. ويزداد الأمر تعقيدا في منظومات ذات التعقيد السميوطيقي، مثل المسرح والسينما والتشكيل، والأدب التفاعلي، تقوم على مبدأ تعدد السنن، والرهان في مقارنة مثل هذه الخطابات يتحدد في كيفية تفاعل أسننها في عملية بناء المعنى، وكيفية استقبال المتلقي لهذا التعدد وتفكيكه.

- مشكل التسنين العبري⁽¹⁾ transcodage: ويتحدد هذا المشكل في ترجمة ونقل المعنى/ الخبر/

(2). كاترين كيربرات أوريشيوني، المضمرة، ترجمة ريتا خاطر، ص 283-290.

(1). Francois Rastier, communication ou transmittion.

الأدبية امتدادات تطبيقية دالة لنظرية التلطف ولنظرية الأفعال الكلامية ولنظرية الحجاج، حيث برزت تداوليات أدبية تهتم بموضوعات منتزعة من مجالات التواصل الاعتيادي، لشتغل على تظاهراتها في مجال الأدب. ومن بين هذه الموضوعات اشتغال المقاصد وحدود الالتقاء بين مقصدية الكاتب والقارئ في إطار ما يسمى بالمقصديات المشتركة (جيرار جينيت)، وتشكلات مبدأ «التعاون»، ذي الأصول الغرايسية، الضابط للتواصل بين المتخاطبين في عمليات صياغة الرسالة الفنية، وذلك من خلال مفهوم «الميثاق الأدبي» أو مفهوم «التعاون التأويلي» بين الكاتب والقارئ الذي طرحه منغونو أحد أهم المدافعين عن مشروع «التداوليات الأدبية».

وتعددت الأعمال في المجال الفرانكوفوني والأنجلوساكسوني المهتمة بتطبيقات نظرية أفعال الكلام في حقل الأدب، وقد وجدت الفرضية الإنجازية عند سورل مجالا خصبا للتطبيق في الدراسات المرتبطة بمجال المسرح تحديدا، وفنون الأداء لارتباطها «بفلسفة العمل»، التي ترى أن البشر لا يتواصلون انطلاقا من رموز مخزنة وخطاطات عمل مخطط لها سلفا بشكل واع قبل إنجاز الفعل، فمعنى السلوك يبنى أثناء الفعل، ففي الخشبة يمكن لنفس الممثل أن يؤدي الدور نفسه/ الحركات/ التعبيرات عدة مرات بدلالات مختلفة، إنها نظرية لاتمثيلية للسلوك، بمعنى أن السلوك ليس انعكاسا لتمثيلات وخطاطات ذهنية جاهزة وثابتة. ولقد عرفت النظرية الإنجازية، التي تسمى في الأدبيات الأنجلوساكسونية الحديثة بالمنعطف الإنجازي performative turn، تطبيقات مهمة في مجال فنون الجسد وفنون العرض الوسائطي.

وينبغي أن نستحضر في هذا السياق انعطاف نظرية أفعال الكلام نحو النصوص والخطابات، بما فيها الخطابات الأدبية، بعد أن تشكلت في إطار مقارنة وصفية

رصد أنماطه المتنوعة المحددة في السياق اللساني المرتبط بتماسك الأقوال السابقة واللاحقة، والسياق المباشر المحدد في وضعية التواصل كما يدركها المتخاطبون، والسياق الاجتماعي والثقافي، ونماذج السياق الذهنية المخزنة كتمثيلات... ويستتبع هذا التصور الإقرار بتعدد مرجعي تقترن به الملفوظات.

- صياغة تصور دينامي (تاريخي وسياقي) للوظائف، لا تكتسب بموجبها الملفوظات ووظائف ثابتة تبنها وتحددها معايير داخلية (لغوية أو ما شاكلها). فالملفوظات تتغير ووظائفها من سياق إلى آخر ومن منظومة ثقافية إلى أخرى ومن حقبة إلى أخرى؛ فالوظيفة الشعرية متغيرة وتاريخية وزمنية وسياقية. فالملفوظات الحاملة لوظيفة شعرية في سياق، قد تسند لها وظائف أخرى في سياقات أخرى.

- تستلزم نظرية الوظائف، حتى تكون قادرة على الاشتغال على النصوص والخطابات، تطورا وتنقيحا؛ مما يبين أن كل النظريات التي ظهرت في القرن العشرين في أطر نحو النص ولسانيات النص لم تستغن عن مكون نظري مهم، ويتعلق الأمر بوظائف النص/ الخطاب (فان ديك-دوبوغراندد...).

3- عن التواصل والتواصل الأدبي

سنخصص هذه الفقرة لمناقشة امتدادات النظريات المرتبطة بالفعل التواصل في حقل الأدب، أو ما يمكن أن نصلح عليه بالتواصل الأدبي. ففي سياق التوسع الذي تشهده النظريات من أجل نقل مفاهيمها وإجراءاتها التحليلية إلى مجالات تطبيقية جديدة مغايرة للمجالات التي مثلت مهادها التطبيقي، عرف حقل الدراسات

أو خطاطات، والمغالطة الثانية مفادها أن كل ما نعرفه عن العالم يأتي عن طريق اللغة، التي تعكس تمثيلاتنا الفكرية للعالم، غير أن الدراسات في العلوم المعرفية بينت أن ما نعرفه عن العالم يأتي جزئياً عن طريق اللغة، وأن هناك مستوى معرفياً بسيطاً يسمى بالبنية التصورية (راي دجاكندوف) يتوسط علاقة الذهن بالمحيط الخارجي، ففيه ترمز التمثيلات الداخلية لإدراكاتنا للعالم الخارجي؛ لأن العالم يبني داخليا في بيئة الذهن/ الدماغ.

إن التواصل لا يمكن أن يحدث إلا بواسطة رموز اتفاقية مخزنة في الدماغ، ومن مهام العلوم المعرفية الإبانة عن كيفية اكتساب هذه الرموز في سيرورة النمو، وكيفية تخزينها ومعالجتها على الخط on line أثناء الإنتاج والفهم، وهل هناك تماثل بين الأفراد في تمثيل ومعالجة عناصر النظام التواصلية.

فمن المعلوم أن مختلف المعلومات المرتبطة بالنظام اللفظي، صوتاً وصرفاً ومعجمياً وتركيبياً ودلالة، منظمة في الدماغ بشكل يسمح باستعمالها في سيرورة الإنتاج والفهم. فأثناء الإنجاز يتم اجتلاب التمثيلات/التسنيينات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية المخزنة في الذاكرة من مناطق مختلفة، وترسل إلى مناطق المعالجة ثم ترسل التعليمات إلى الأعضاء المحركة (جهاز النطق) ليتم نطقها متسلسلة.

ويتضمن مسار الإنجاز والفهم انتقالاً من النظام التصوري إلى النظام اللساني ومن اللساني إلى المفهوماتي/ التصوري⁽²⁾، ويتم هذا الانتقال وفق

(2) يقترح بيرنار بوتتي في النموذج الذي يقدمه للتواصل، المبني على مقتضيات معرفية، رسم مسارات محددة للفعل التواصلية، قوامها صياغة تصويرية قبل-لفظية يتم تحويلها إلى تسنيينات لسانية، ومن جهة أخرى يجمع المرسل والمتلقي مقاماً ومعرفة موحدة بالعالم وتصميماً معرفياً موحداً مبني على معارف موحدة بينهما حول العالم، تضمن المعرفة الموحدة والتصميم المعرفي الحد الأدنى من التوافق والتناغم بين الذوات المتواصلة. فوجود توافقات نورولوجية ولسانية واجتماعية ضامن لتناغم أدمغة المتخاطبين في حده الأدنى. Pottier, theorie et analyse en linguistique.

في كنف الاشتغال الوصفي على جمل منفصلة، لقد تحول الاهتمام إلى البحث في كفاءات ترابط/ تماسك أفعال الكلام داخل الخطابات لتشكل فعلاً كلامياً أكبر macro act (فان ديك).

كما تزايد الاهتمام بنظرية المقام وتشكلاته في الخطاب الأدبي، وبالعلاقة الأدب بالمؤسسة (سكاربيت)، وتحديدًا مختلف الإكراهات والقيود السوسولوجية والتاريخية التي تؤثر في سيرورة إنتاج «الأثر الأدبي» وتلقيه. كما برزت في العقود الأخيرة، في إطار التداوليات المعرفية، مجموعة لافتة من البحوث الدقيقة المنجزة حول مباحث قديمة/ جديدة في حقل الأدب، ويتعلق الأمر بالاستعارة والتخييل والمثل (موشليير، أن ريبول).

4- آفاق جديدة لدراسة التواصل: المنعطف المعرفي

فتحت العلوم المعرفية آفاقاً رحبة لدراسة الذهن، من خلال الاشتغال المتعدد الاختصاصات على الآليات التي يستخدمها الدماغ لاكتساب المعارف والمعلومات وتخزينها وتمثيلها ومعالجتها؛ ذلك أن الدماغ يتضمن في هندسته الوظيفية مناطق نشيطة تمثل الاشتغال المعرفي لمناطق/ باحات متخصصة في أصناف من المعالجات دون أخرى، وتتربط مناطق وأحيازه عبر شبكات عصبية، تقوم على تنسيق المعلومات؛ لأنه يعتمد معالجة موزعة ومتوازنة.

لقد حققت العلوم المعرفية ثورة علمية، حتى غدت الأنموذج الجديد new paradigm، في مجالات متنوعة مثل الأنثروبولوجيا والذكاء الاصطناعي وعلم النفس وعلم التربية وعلوم اللغة والدراسات الأدبية⁽¹⁾.

لقد سادت مغالطتان في التصور التمثيلي والتصوير الماصدقي للغة، تقوم المغالطة الأولى على فكرة أن اللغة تمثيل للفكر إلا أن هناك ما يؤكد أن التفكير يمكن أن يكون بدون لغة، وذلك بواسطة صور أو رموز

(1) Andler, Daniel, introduction aux sciences cognitive.

يجب أن تكون مبحثاً تابعا لعلم النفس المعرفي، حيث إن تأويل المفوضات متجذر في آليات عامة للفهم ولاشتغال العمليات المعرفية التي يعد الذهن مركزا لها. تتمحور الأطروحة المركزية لـ«نظرية الملاءمة» عندهما حول نقد نموذج السنن الذي هيمن على نماذج التواصل، فقد بينا بما فيه الكفاية أن التواصل بين البشر يعتمد إوالبتين متفاعلتين ومتكاملتين، وهما إوالبية التسنين وإوالبية الاستنتاج. والفكرة هنا أن المفوضات لا تحمل المعنى سوى بصورة جزئية، وأنظمة معالجة المعنى معالجة لسانية في الذهن لا تسنن سوى جزء من المعاني القصديّة؛ لأنها تعالج المعنى اللغوي بشكل محلي ومستقل عن السياق، ولذلك تأتي إوالبية الاستنتاج لإغناء تأويل المفوض، بالانفتاح على المحيط المعرفي للمتخاطبين. فما يمكن للتسنين أو لضك التسنين اللسانيين أن يبلغاه متمثل في تمثيلات جزئية ومجردة وغير مكتملة للمعنى، ينبغي إغناؤها، بتضمينات وافتراضات. ليس كل ما يمكن أن يقال يرمز بواسطة النظام اللغوي، فالتضمينات والمقاصد لا ترمزهما اللغة.

وفي ظل هذا التصور تتحول الأقوال إلى منبه ضمن منبهات توجد في المحيط المعرفي للمتخاطبين وظيفتها إبراز القصد، ويتمثل دور المؤول في استعمال آليات استنتاجية للتعرف على قصد المرسل. ومن المفروض أن يكون هذا المفوض في سيرورة إنتاجه ملائما للسياق، مثلما أن المؤولين يعملون جاهدين على إنتاج تأويلات ملائمة للأقوال واستبعاد التأويلات غير الملائمة. فمبدأ الملاءمة مرتبط بالنظام المركزي للذهن الذي يشغل بمبدأ المردودية، والذي يعمل على إنتاج تمثيلات تامة للمفوضات بواسطة الاستنتاج، وهي تمثيلات خاضعة للسياق بعكس إوالبية التسنين المستقلة عن السياق. وبموجب مبدأ الملاءمة يستعمل المتخاطبين كل ما يمنحهم محيطهم المعرفي من قرائن لبناء الفرضيات

إجراءات تسترعي التوافق ومقتضيات السياق، بمعنى أن المعالجة التي تربط اللغة بالمقام تقتضي تشبيها متوازيا، للمعلومات اللسانية والمقامية. وهذا ما تبينه الدراسات النورولوجية التي أفرت بتفاعل الشق الأيسر للمخ المخصص في المعالجة النحوية مع الشق الأيمن المخصص لمعالجة مهارات الكفاءة التواصلية، على رأسها المهارات غير اللفظية والتفاعلية والمعلومات المتعلقة بالسياق، والتعرف على الوجه وتعبيراته والحركات والنوايا. فاستعمال اللغة يقتضي تفعيلا متكاملًا للكفاءة اللسانية وكفاءات تواصلية وتداولية غير لفظية⁽¹⁾.

تمثل دوائر البحث في العلوم المعرفية إطارا علميا متطورا لتطوير آليات وصف أنظمة التواصل عند البشر وتفسيرها. وبذلك اتسع طموح مجموعة من التخصصات التقليدية من قبيل علم الدلالة أو التداوليات أو الدراسات الأدبية نحو استدماج أنموذج العلم المعرفي، لاستكشاف أو إعادة اكتشاف مباحث كلاسية، من قبيل سيرورة الفهم أو التأويل أو التفكيك أو تفاعل الذات المنتجة للنصوص مع الأثر الأدبي أو تفاعل القارئ مع النصوص.

وفيما يلي سنركز على إطارين معرفيين في ارتباطهما بمجالين من مجالات التواصل، وهما التواصل اللفظي وغير اللفظي والتواصل الأدبي. ويتعلق الأمر بالتداوليات المعرفية cognitive pragmatics من جهة والشعرية أو السرديات المعرفية cognitive poetics- cognitive narrative من جهة أخرى.

عمل سيبيرير وولسون في إطار التداوليات المعرفية على فك الارتباط بين التداوليات واللسانيات⁽²⁾، فالتداوليات

(1) ينظر، بنعيسى زغبوش، السيرورة التواصلية والكفاءة اللغوية بين علوم الأعصاب وعلم النفس المعرفي: نموذج اللغة المنطوقة ولغة الإشارة، ضمن: التواصل وأبعاده اللسانية والسيكولوجية والتربوية والتقنية، ص24.

(2) Dan sperber, Dordre Wilson, Relevance communication and cognition.

Dan Sperber, Dordre Wilson, Meaning and Relevance.

هذه المقاربة في قدرتها على صهر ثلاثة منعطفات تشكلت في تاريخ الدراسات الأدبية:

- المنعطف الفينومينولوجي: الذي قام على دمج بعد النص بمظاهره البنيوية الداخلية بالبعد النفسي والذاتي للقراءة باعتبارها تجربة فردية وذاتية.

- المنعطف البنيوي: المؤسس على موضوعة المعنى خارج الذات، من خلال البحث عن قوانين بنائه داخل النص.

- المنعطف المعرفي: المبني على ربط البنيات النصية بالنشاط الذهني للقراء وبآليات معالجة المعلومات كما تتم في أذهان المتلقين.

خلاصات واستنتاجات:

سعيًا من خلال هذه الدراسة إلى تقديم مقاربة ذات منحنيين:

- منحى تاريخي: توخينا من خلاله رصد المحطات الكبرى لتطور مفهوم التواصل في حقول معرفية شتى، مبرزين مختلف تحولاته.

- منحى إبستمولوجي: الغرض منه تفكيك مفترضات النظريات التي حاولت صياغة نماذج لوصف النشاط التواصلية عموماً، والتواصل اللفظي خصوصاً. وكان لزاماً لهذا التفكيك أن يمر عبر مسالك استجلاء الشبكة المفاهيمية التي يندرج فيها مفهوم التواصل، وتمثل عناصر هذه الشبكة دعائم الفعل التواصلية: تنظيراً وممارسة. ويتعلق الأمر بالمفاهيم التالية: السنن - المرجع - المقام - المرسل - المرسل إليه.

لقد بينا أن نقد هذه المنظومة المفاهيمية صاحبه ظهور مفاهيم أخرى، مثل مفهوم الكفايات التواصلية.

إن التنظير للتواصل قد تطور في إطار مقارنة بينية وعبرية، تتأسس على تفاعل العلوم وتكاملها. ولقد اغتنى

الواردة والمساهمة في التأويل الصحيح. وفي هذا التصور ليس السياق عنصراً ثابتاً، وإنما يبني ويعدل طيلة عملية الفهم والتأويل⁽¹⁾.

وبخصوص الشعرية المعرفية والسرديات المعرفية⁽²⁾، فنحن إذاءً بمبحثين نخالهما متطورين ضمن الدراسات الأدبية، فمجموعة من قضايا المبحثين ذات ارتباط وثيق بإشكالية التواصل الأدبي كما سنبين. فمن بين المسائل التي استأثرت باهتمام المتخصصين في الشعرية المعرفية والسرديات المعرفية: كيفية بناء الأذهان للتمثيل السردية، والدور الذي يلعبه التخيل في حياة الفكر وتطور الذكاء الإنساني، وكيفية تفعيل القرائن والبنيات النصية في النصوص الأدبية وتنشيطها لسيرورات معالجة معرفية في أذهان قراء الأدب ومستقبله، وآليات بناء المعنى في الأدب مقارنة بالسرديات المعرفية التي يبني بها في مجالات لغوية ومعرفية غير أدبية (الإسقاط الاستعاري وآلية الدمج...)، الدور الذي تلعبه الوسائط (السمعية والبصرية واللفظية) في بناء أنماط معينة من المعالجة الذهنية لظاهرة التسريد وتعديلها، ومثال ذلك المقارنة بين التمثيل السردية في الرواية والسينما والموسيقى والرسوم المتحركة، وهنا يطرح مشكل التسنين العبري المشار إليه سابقاً، ويتحدد في تقنيات ترجمة ونقل السرد من وسيط لآخر.

وتمثل الشعرية المعرفية لكثير من الدارسين مقاربة جديدة ونوعية لأقطاب التواصل الأدبي الثلاثة: الكاتب والنص والقارئ. من منطلق فتح الجسور بين الإنتاجية باعتبارها سيرورات معرفية تتخذ تشكيلات وتجليات نصية، تثير الفاعلية التأويلية لدى المتلقي. وتكمن جدة

(1) ينظر، عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، صص 33-37.

(2) نغتمد في هذه الفقرة على القضايا التي بسطناها في مداخلتنا ضمن اليوم الدراسي المنظم بالكلية متعددة التخصصات بأسفني حول السرديات وعنوان مداخلتنا: السرديات المعرفية: آفاق جديدة لتحليل الخطاب السردية.

- كاترين كيربرات أوريشيوني، المضمّر، ترجمة ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2008م.
- مبارك حنون، عندما تخلق النظرية مقومات تجاوزها: قراءة في مصير وظائف اللغة، ضمن مجلة البلاغة والنقد الأدبي، عدد 3، 2015م.
- مجموعة من الباحثين، التواصل وأبعاده اللسانية والسيكولوجية والتربوية والتقنية، منشورات مختبر العلوم المعرفية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرز، فاس، الطبعة الأولى، 2011م.
- محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصل، دراسة تطبيقية في اللسانيات التوليدية، إفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، 2010م.
- محمد نظيف، في التداولية المعاصرة والتواصل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2014م.
- نور الدين رايس، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، مطبعة سايس-فاس، المغرب، الطبعة الأولى، 2007م.

الأجنبية:

- Andler Daniel ; introduction aux sciences cognitive, folio essais, 2004.
- Anne Reboul, langage et cognition humaine, PUG, 2007.
- Dan Sperber, Dordre Wilson, Relevance communication and cognition, Blackwell, ed. second edition, 1995.
- Dan sperber, Dordre Wilson, Meaning and Relevance; Cambridge university press, 2012.
- François Rastier, communication ou transmission, césure, N8, 1995.
- Olivier Houde, vocabulaire de sciences cognitives, PUF, 2003.
- Pottier Bernard, theorie et analyse en linguistique, Hachette, Paris, 1987.

حقل الدراسات التواصلية، باندماج قضاياها ضمن انشغالات مجموعة من العلوم مثل التداوليات والعلوم المعرفية وتحليل الخطاب وتحليل المحادثة... كما حاولنا استحضار بعض امتدادات منظومة العلوم التي اشتغلت على تيمة التواصل وتجلياتها وآلياتها في سياق حقل الأدب، في إطار ما يعرف بالتواصل الأدبي.

ومنتهى القول إن مستقبل الدراسات التواصلية يكمن في الانخراط في برامج بحث بينية وعبرية، من خلال التوقع في منظومة التخصصات والمقاولات العلمية الجديدة، من أجل تجديد قضاياها، واجتراح آفاق جديدة لتناول القضايا الكلاسيكية للتواصل بأدوات علمية متجددة، تحتاج إلى استنبات في الممارسة العلمية عندنا، بغاية إنتاج جيل جديد من البحوث والباحثين.

ببليوغرافيا:

العربية:

- امحمد إسماعيلي علوي، التواصل الإنساني: دراسة لسانية، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2013م.
- امحمد الملاخ، حافظ إسماعيلي علوي، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، 2009م.
- باتريك شارودو ودوميتيك منغونو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سناترا، تونس، الطبعة الأولى، 2008م.
- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2006م.
- عز الدين البوشيخي، التواصل اللغوي: مقارنة لسانية وظيفية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2012م.
- عز الدين الخطابي وزهرة حوتي، التواصل نظريات ومقاربات، منشورات عالم التربية، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 2007م.

